مفهوم الكلمة في النصوص القرآنية
وتطور دلالتها في المدارس الكلامية
The concept of the word in the Quranic texts and the development of its connotation in the Kalam schools

م.م. سرى يوسف ضياء *

summary

This study is concerned with researching and investigating the concept of the word and explaining its interpretation in the Quranic texts, and the study also investigates the position of speakers on the statement of the meaning of the word according to their verbal debates with Christians. This is based on their rational explanations of the doctrine. While many of their verbal views expressed in the concept (word) naturally stem from a traditional Substratum, countless of them are the result of dialectical discussions expounded by theologians about the abstract structures of religious doctrine. According to their diverse approaches, the speakers have sought to explore outstanding investigations in Quranic research, trends and recent conceptual achievements with the concept of (the word), providing an insight into the ability to expand and a greater understanding of new findings.

Keywords: The Word, Christ, Nestorians and Melkites, the Son, Ash'arites, Imamis, Mu'tazila.

ملخص

تعنى هذه الدراسة في البحث والاستقصاء عن مفهوم (الكلمة) وبيان تفسيرها في النصوص القرآنية، كما تتحرى الدراسة موقف المتكلمين من بيان معنى (الكلمة) وذلك وفق مناظراتهم الكلامية مع النصارى. ويأتي هذا مبنيًا على شروحاتهم العقلانية للعقيدة. في حين أن العديد من آرائهم الكلامية المعبّر عنها في مفهوم (الكلمة) تنبع بشكلٍ طبيعي من طبقة أساسية تقليدية، إلّا أن عددًا لا يحصى منها هو نتيجة

* كلية العلوم الإسلامية/ جامعة الموصل.

للمناقشات الجدلية التي يشرحها اللاهوتيون حول البنى المجرّدة للعقيدة الدينية. لقد سعى المتكلمون وفق مناهجهم المتنوعة، في استكشاف تحقيقاتٍ بارزة في الأبحاث القرآنية والاتجاهات والإنجازات المفاهيمية الحديثة مع مفهوم (الكلمة)، مما يوفّر نظرة ثاقبة في القدرة على توسيع وفهم أكبر للنتائج الجديدة.

الكلمات المفتاحية: الكلمة، المسيح، النساطرة والملكانيين، الابن، الأشاعرة، الإمامية، المعتزلة.

المقدمة

الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولد، ولم يكن له شريكٌ في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبّره تكبيرا، نحمده تعالى أن هدانا الى دينه القويم وسراطه المستقيم، دينُ الإسلام، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا وشفيعنا أبي القاسم محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين وبعد.

فمن المعلوم أن أحد أهم العقائد التي ترتكز عليها الديانة النصرانية العقيدة بألوهية السيد المسيح (على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام)، وهذه العقيدة تشكّل في الواقع أحد الخلافات الأساسية بين النصرانية والإسلام، وأن الإسلام يؤكّد على أن السيد المسيح لم يكن إلّا عبدًا مخلوقًا لله عزّ وجلّ، ونبي كباقي الأنبياء من قبله. في حين تقرر العقيدة النصرانية أن المسيح هو الله تعالى نفسه وبتعبيرٍ أكثر تفصيلاً هو شخص الابن من الذات الإلهية. إن قصة السيد المسيح (عليه السلام) من القصص المهمة في حياتنا وحيث أننا من خلال هذا الجهد وضّحنا كيف يفهم النصارى أن المسيح هو ابن الله وكيف فهم علماء المسلمين والفرق الإسلامية أن المسيح مثله كمثلِ آدم (عليه السلام) خُلِق بكلمةٍ من الله وهي كن فيكون.

لقد وصف الله عيسى في كتابه الحكيم؛ بأنه (كلمة الله)، ويبدو أن معنى (الكلمة) المذكور في القرآن تُماثل الكلمة اليونانية (لوغوص)، التي أُعطيت لمريم وأنها روحه. ومع ذلك، يرفض القرآن الكريم تعريف عيسى على أنه إله، وذلك من أجل التأكيد على وحدانية الله المطلقة. إن (كلمة الله) التي أصبحت عيسى ابن مريم، وفقًا لتفسيرات المفسّرين من المذاهب الإسلامية _كالمعتزلة والأشاعرة والشيعة_، ليست مجرّد كلمة إبداعية، ولكنها أيضًا كلمة وحي.

كما وأظهرت تفسيرات مفسّري القرآن اختلافًا فيما يتعلّق بالأساس المنطقي وراء الإشارة إلى عيسى (عليه السلام) على أنه (كلمة الله). فهم يتفقون في الغالب (إمّا بشكلٍ صريح أو ضمني) على أن مصطلح (الكلمة) لا يُفسّر في السياق اللاهوتي المسيحي. ومع ذلك، فإن بعض المفسّرين، ولا سيما العلّامة الطباطبائي، يؤكدون وجود علاقة كبيرة بين (كلمة الله) كتسمية للمسيح وكلمة الله الخالق، ليس بسبب

عيسى (عليه السلام)، الكلمة، التي لها أي دورٍ نشط في الخلق، بل لأن عيسى (عليه السلام) خُلِق مباشرةً بأمرٍ إلهي دون وساطة أب. ويتبنى هذا التفسير إلى حدٍ كبير غالبية المفسّرين، الشيعة والسنة على حدٍ سواء، بمختلف فِرَقِهم ومذاهبهم.

ومن خلال بحثنا هذا توصلنا إلى منهجٍ بني على الاستقراء الدقيق، فقد تكونت خطة البحث من محورين؛ الأول تناولنا فيه مفهوم الكلمة من حيث اللغةِ والاصطلاح، وأيضًا وضّحنا فيه مفهوم الكلمة في قصة خلق عيسى (عليه السلام) بصورتها النصرانية. في حين أن المحور الثاني، بيّنا فيه مفهوم الكلمة في قصة خلق عيسى (عليه السلام) بصورتها الإسلامية، وذكرنا أيضًا آراء المتكلمين من معتزلة وأشاعرة وشيعة إماميه لمفهوم الكلمة. ورغم بعض الصعوبات التي واجهتنا خلال كتابة هذا البحث، إلّا أننا استخدمنا ما وقع أمام ناظرنا من المصادر الكثيرة والمتنوعة.

المبحث الأول

مفهوم الكلمة في قصة خلق عيسى (عليه السلام) بصورتها النصرانية

أولًا: مفهوم الكلمة من حيث اللغة والاصطلاح

كلم:- الكاف واللام والميم، أصلان أحدهما على نطق مهم والآخر على جراح. فالأول الكلام نقول كلمته، أكلّمه تكليما، وهو كليمي إذا كلّمك أو كلّمته. ثم يتسعون فيسمون اللفظة الواحدة المفهمة كلمة، والقصة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة، ويجمعون الكلمة كلمات وكلمًا، قال الله تعالى: {يُحرّفونَ الكَلِمَ عن مواضِعِه}[1].

والأصل الآخر كَلِم، وهو الجرح والكلام الجراحات، والكلام: الجراحات وجمع الكَلِم كلوم أيضًا، ورجلٌ كليم، وقومٌ كَلمَى أي جرحى[2]. قال الجوهري: الكلام اسم جنسٍ يقع على القليل والكثير، والكَلِم لا يكون أقل من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة، مثل نبقه ونبق. ولهذا قال سيبويه: هذا باب علم ما الكَلِم من

---

[1] سورة النساء، آية: ٤٦.

[2] معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٠هـ) د/ط (دار الفكر ، د/م : ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م) ج٥ / ص١٣١.

العربية، ولم يقل ما الكلام لأنه أراد ثلاثة أشياء: الاسم والفعل والحرف، فجاء بما لا يكون إلّا جمعًا، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة[١].

أما اصطلاحًا:- فالمراد بكلمة ها هنا ثلاثة اقوال: أحدهما أنه قول الله له (كن) فكان، قاله ابن عباس وقتادة. والثاني: أنها بشارة الملائكة مريم بعيسى حكاة ابو سليمان. والثالث: أن الكلمة اسمٌ لعيسى، ومسمى كلمة لأنه كان عن كلمة، وقال القاضي أبو يعلى: لأنه يهتدي به كما يهتدي بالكلمة من الله تعالى[٢].

أما الكلمة عند النصارى, فقال بعضهم هي العلم؛ وإنما سمي بذلك لأنه يظهر بالنطق, وقال بعضهم أن الكلمة والنطق ليسا العلم[٣].

ثانيًا: آراء أصحاب الأناجيل في عيسى (عليه السلام)

بعد إعداد المسيح بدقة بتعاليمه العقائدية وأفعاله المثالية لإظهار حقيقة طبيعته الإلهية، أعلن نفسه بصوتٍ مسموع على أنه ابن الله، والمسيح المنتظر، والدَيّان العادل. رأى الجموع المجتمعين أنه يخاطب الله باعتباره والده ويقول في تضرّعٍ من القلب: (أحمِدُك يا أبتِ رب السماوات والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء، وكشفتها للأطفال. نعم يا أبتاه لأنه هكذا أحسن لديك، كل شيء قد دفع إليّ من أبي وليس أحدًا يعرف الابن إلّا الأب، ولا أحد يعرف الأب إلّا الابن) [٤]. في هذا التصريح، كشف عن سرِّ أصله الإلهي وأعلن ارتباطه بالله، مؤكدًا أن الله وحده يمكنه أن يعرفه حقًا كما هو، وأنه لا يمكن لأحدٍ أن يعرف الله كما يعرفه، نظرًا لعلاقته الأبوية في الطبيعة. وشدد على قدرته على أداء أعمال والده، مثل إقامة الموتى وإحيائهم، وأكد استحقاقه الشرعي للشرف الإلهي (لأنه كما أن الأب يقيم الموتى ويحييهم، كذلك

---

[١] لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ) ط٢ (احياء التراث العربي، بيروت – لبنان: ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م) ج١٢ / ص١٤٧.

[٢] ينظر: زاد الميسر في علم التفسير، جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي الفرسي البغدادي (ت٥٩٧هـ) ط٤ (المكتب الاسلامي، بيروت – دمشق: ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م) ج١ / ص٣٨٦.

[٢] ينظر: موسوعة مصطلحات علم الكلام الاسلامي, سميح دغيم, مكتبة لبنان, بلا.ط, ج٢,حرف الكاف, ص١٠٩٤

[٤] انجيل متى، القس انطونيوس فكري ١١ – ٢٥: ص١٥٠.

الابن يحيي من يشاء لأن الأب لا يدين أحدًا، بل أعطى الحكم كله للابن ليكرّم الابن جميع الناس كما يكرمون الأب ومن لا يكرم الابن لا يكرم الأب الذي نسله)[١].

إن القديس يوحنا الإنجيلي، الذي صاغ هذا النص الخاص بيسوع المسيح، مؤهل بشكلٍ فريد لتقديم هذه الشهادة بسبب ارتباطه الوثيق بالمسيح ومكانته كأول مؤمن به. لقد أعلن بالفعل أصله الإلهي في بداية الخلق. كما أوضح قائلًا: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله)[٢]. لقد ذهب إلى أبعد من ذلك فقال: (إن من رأى فقد رأى الأب، لأنه في الأب والأب فيه)، (فقال له فيليبس[٣] يا رب أرنا الأب وحسبنا، فقال له يسوع أنا معكم كلّ هذا الزمان، ولم تعرفوني يا فيليبس، من رآني فقد رأى الأب، فكيف تقول أنت أرنا الأب. أما تؤمن أنّي أنا في الأب وأن الأب فيّ. الكلام الذي أكلّمكم به لا أكلّم به من عندي بل الأب، الذي هو مقيمٌ فيّ، هو يعمل الأعمال آمنوا أنّي أنا في الأب وأن الأب فيّ)[٤]. وأخيرًا ساوى نفسه بالله علانية: (أنا والأب واحد)[٥].

لا يحتل المسيح مكانة ابن الله المتبنى، مثل الصالحين والمؤمنين. إنه، في جوهره، ابنه بطبيعته. هذه العلاقة الجوهرية هي التي منحته مثل هذه الجرأة. لقد ألقى خطابًا حازمًا وواثقًا من نفسه، كما لو كان يمارس إرادته عليه، عندما يقول: (يا أبتِ إن الذي أعطيتني أريد أن يكون معي حيث أنا، ليَرَوا مجدي الذي أعطيتني)[٦]. بدلاً من مجرد التعبير عن كلمات الابن الحقيقي عندما يؤكد: كان من الطبيعي تمامًا أن

---

(١) انجيل يوحنا، القس انطونيوس فكري ٥/٢١-٢٤: ص١٠٣.

(٢) المصدر نفسه : ١/١ : ص٧ .

(٣) فيليبس: اسم يوناني معناه : محب الخيل, ويُعرف أيضًا بالقديس فيليبس. هو واحد من رسل المسيح الاثني عشر، من سكان بيت صيدا الواقعة على بحيرة جينيارات (بحيرة طبرية)، وبحسب انجيل يوحنا فإن يسوع أدناه ليكون واحدًا من أتباعه. ينظر: قاموس الكتاب المقدس, نخبة من المؤلفين, حرف الفاء, ص٤٨٠

(٤) يوحنا: ١٤/ ٨ -١١ : ص ٢٩٠.

(٥) المصدر نفسه، ١٠ / ٣٠: ص٢٠٧.

(٦) المصدر نفسه، ١٧/ ١-٣٦: ص٣٥٣/٣٥٤.

تتعلّق هذه التصريحات بحفائظ اليهود عليه[١]؛ (فازدادوا طلبًا لقتله، ليس لأنه كان ينقض السبت فقط، بل لأنه كان يقول إن الله أبوه مساويًا نفسه بالله)[٢].

تجسد الكلمة

وهكذا، تتجاوز الكلمة الإلهية مجرّد الموجات الصوتية، أو مجموعة المفاهيم، أو المواد الفكرية المجرّدة. إنها تتجلى ككيان ملموس في شخص يسوع المسيح الناصري، الذي يشار إليه بالكلمة المتجسدة[٣]. إنه بمثابة التعبير التواصلي عن الله الموجه نحو البشرية. لا يشمل هذا التواصل الكلمات المنطوقة ليسوع المسيح فحسب، بل أيضًا أفعاله، بالإضافة إلى مجمل معاناته وصلبه وقيامته، عندما اتخذت الكلمة شكلاً جسديًا[٤]. بهذه الطريقة، أصبحت الكلمة حضورًا دائمًا وفعالًا وواضحًا ومطمئنًا تمامًا ولا رجعة فيه. هنا، عبّر الله عن نفسه بوضوح شديد لدرجة أن كل من ينظر إلى الابن قد نظر بالفعل إلى الآب[٥]. لا يوجد شيء أعلى منه أو يتجاوزه. وعلى العكس من ذلك، فقد تحققت كلماته في السبع. إن محبة محبة الله ثابتة وغير متغيرة على حد سواء، وتبلغ ذروتها بتتويج محبته. هذا يوضح كيف وسع الله حبه للعالم إلى حد التضحية بابنه الوحيد[٦].

بدلاً من ذلك، كما هو موضح في الرسالة إلى أهل آفسس[٧]: قصد الله توحيد كل الأشياء داخل المسيح، وجعله النقطة المحورية والتقارب إذ تتقاطع جميع الخطوط. تم نقل إعلان الله الفريد من خلال

---

(١) يسوع المسيح شخصيته –تعاليمه، الأب بولص إلياس البيومي، ط٢ (المطبعة الكاثوليكية، بيروت: د / ت): ص٧٣.

(٢) يوحنا، ٣٥/١٠: ص٢٠٧.

(٣) يسوع الناصري: يسوع هو اسمه, والمسيح لقبه, ولد في مدينة الناصرة في الجليل الأسفل، والتي كانت موطن الرب يسوع طوال الثلاثين عام الأولى من حياته، وبالتالي جاءت تسميته بيسوع الناصري، ولعلّ ذلك كان تمييزًا له عن غيره ممن كان يُطلق عليهم اسم يسوع. ينظر: قاموس الكتاب المقدس, حرف الياء, ص٧٠٩.

(٤) انجيل يوحنا، القس انطونيوس فكري: ١٤/١، ص٧.

(٥) المصدر نفسه : ١١/١٤ ، ص٢٩٠ .

(٦) المصدر نفسه: ١٦/٣، ص٦١.

(٧) مدينة آفسس: كلمة يونانية معناها (المرغوبة)، كان لها مرفئ وميناء قديم بحري مهم في العصور القديمة, وأهم مركز للمسيحية استخدمها الرسول بولس كقاعدة له، نادى منها برسالة المسيح أثناء رحلته التبشيرية، وأقام فيها لسنتين. ينظر: قاموس الكتاب المقدس, حرف الألف, ص٦٧–٦٨.

شهادة الرسل التي لا مثيل لها، كما هو مؤرخ في النصوص الكنسية. هذا يمثل ظاهرة حصرية وغير قابلة للتكرار داخل المجتمع الكنسي المسيحي[١].

يفترض القديس أثناسيوس[٢]، الذي كان لديه فهم عميق للكلمة، أن القضاء على الفساد البشري لا يمكن تحقيقه بأي وسيلة أخرى غير الموت للجميع. لا يمكن للكلمة نفسها أن تهلك، لأنه منيع حتى الموت. إنه ابن الآب غير القابل للفساد. وبالتالي، اتخذ جسدًا بشريًا، حتى أنه عندما أصبح هذا الجسد مرتبطًا بالكلمة، التي تجسد موت الجميع، فقد نال ميزة ليس فقط الموت من أجل الجميع ولكن أيضًا للبقاء غير قابل للفساد بسبب الاتحاد مع الكلمة. من هذه النقطة فصاعدًا، تنطبق إمكانية الفساد على البشرية جمعاء من خلال نعمة القيامة من بين الأموات. لذلك، قدّم الموت الجسد المفترض لنفسه كذبيحة مقدسة وتضحية خالية من كل العيوب. إن عبارة (تقديم جسده) للجميع، تعني عدم القدرة العالمية على التهرب من الموت، جنبًا إلى جنب مع قدرة الكلمة على إبادة الموت. ومن ثم، يُعتبر أنه يستحق الموت من أجل الجميع. كان الجسد (جسد الكلمة)، الذي له نفس جوهر الإنسانية ويتألف من الطبيعة البشرية، عرضة للموت. وهكذا، أُجبر على الموت مثل جميع البشر الآخرين. كانت وجهة نظره هي أنه من خلال القيامة بالكلمة، تم إعفاؤه من الفساد وفقًا لطبيعته، ومع ذلك، بسبب كلمة الله، اختبر الموت[٣].

ثالثًا: حقيقة الابن

---

[١] ينظر: الدراسات اللاهوتية في الكتاب المقدس _ما أعجب أن يتكلم الله، أدولت بول، ط١ (مدرسة اللاهوتية المعمدانية العربية – لبنان: ٢٠٠٧): ص٢٥-٤٦-٥٢.

[٢] اثناسيوس الاسكندري: ولد في ٢٩٣م وتوفي في ٢ مايو ٣٩٣م، كان بطريرك الاسكندرية في القرن الرابع، تم الاعتراف به كقديس من الكنيسة الكاثوليكية مؤخرًا، ويعتبر عالم عظيم من قبل البروتستانت، أعلنته الكنيسة الكاثوليكية في روما أحد علماء الكنيسة، ويعتبر أحد الآباء الأربعة الأعظم لدى الكنائس الشرقية. هو أب الكنيسة القبطية الارثذوكسية ومعلمها الإيماني الأول. ينظر: تجسّد الكلمة للقديس اثناسيوس الرسولي, تعريب الأب حنا الفاخوري, المركز الارذدوكسي للدراسات الآبائية, ف٦, ص٣-٧.

[٣] ينظر: قصة الدهور مفهوم الخلاص بكونه إتمامًا بين الله والبشرية، وجذب رزق غالي (د/ت) ط١، (مركز باناريون للتراث للتراث الأباني – مصر: بانابر ٢٠١٩): ص٣٣ – ٣٤ – ٣٥، ص ١٧٥. وينظر أيضًا: كتاب الآباء والعقيدة، سعيد حكيم يعقوب (د/ت) ط١، (مؤسسة القديس انطونيوس – المركز الارتوذكسي للدراسات الابائية – القاهرة: يوليو ٢٠١٢): ص١٠٥.

يفترض أصحاب الثالوث؛ أن الركن الثاني من الثالوث، المشار إليه باسم ابن الله، يجسد كلمة الله. يُنظر إلى هذه الأصول على أنها تنبع من الذات الإلهية نفسها. اتخذت الكلمة طبيعة الابن، بينما اعتمدت الذات الإلهية في نفس الوقت دور الآب، وصار كل من الذات والكلمة اقنومًا[١] قائمًا بذاته. مما أدى إلى تمييز كل من الأب والابن ككيانات منفصلة. يُعرف الأول باسم الله الآب، بينما يُعرف الأخير باسم الله الابن. في عرضه اللاهوتي، يؤكد القديس يوحنا أن الله هو الكلمة ويعرّفه في الوقت نفسه على أنه الله الابن؛ لقد كان موجودًا في عُهدة الله الآب منذ بداية الخليقة. لقد ثبت أن الله الكلمة قد تجسد وتجلّى بين البشر على الأرض، وأن الله الكلمة هو الابن الوحيد لله الآب. تشير النصوص المقدّسة، كما أوضحها القديس يوحنا، على وجه التحديد إلى يسوع المسيح، عليه السلام. في إطار الفكر الفلسفي المسيحي، يُعرف بأنه ابن الله الفريد. إنه الكيان الإلهي الذي اتخذ الشكل المادي وتم تصوره في عالم الإنسان[٢].

يتفق القرآن الكريم مع التقليد المسيحي فيما يتعلّق بالتأكيد على أن يسوع المسيح يجسد كلمة الله. يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: {إذ قالتِ الملائكةُ يا مريم إن الله يبشّركِ بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين}[٣]. في الواقع، تم التأكيد على أن يسوع المسيح يمثّل كلمة الله. فقد تم خلقه عليه السلام بكلمةٍ من الله. ومع ذلك، ما الذي يشكّل العلاقة بين الله وكلمته؟ ما طبيعة الارتباط بين المتكلّم والكلمة المنطوقة؟ هل الكلمة مرادفة للمتكلم، أم أنها مستقلة عن المتكلم؟ يتماشى هذا الاستفسار مع تأملات القمص إبراهيم[٤] في كتابه: (أنه لا فرق بين الله وكلمته، كما أنه لا فرق بين الإنسان وكلمته). كيف يمكن أن تكون الكلمة مطابقة للمتكلم؟ وكيف يمكن أن تشترك الكلمات في نفس جوهر المتكلم؟ إذا التزمنا بمنطق أصحاب الثالوث في افتراض أن يسوع هو كلمة الله، فهل هذا يعني أن المسيح هو كلمة الله الوحيدة؟ ألم يفصح الله عن كلمته أو كلمات أخرى قبل مجيء المسيح؟ ألم يُخلق آدم أيضًا قبل المسيح بكلمةٍ من الله؟ وكما أوضح شيخنا المحترم أبو علي، فإن الغرض من تسمية المسيح كلمة

---

[١] الأقنوم: في اللغة هو الاصل, والأقانيم عند النصارى ثلاث صفات من صفات الله وهي: (العلم والوجود والحياة)، فعبّروا عن الوجود بالأب, وعن الحياة بروح القدس, وعن العلم بالكلمة, وقالوا: أقنوم الكلمة اتحد بعيسى, بمعنى أن الطبيعة الإلهية اتحدت بالطبيعة الإنسانية. ينظر: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة, عبدالمنعم الحفني, مكتبة مدبولي (مصر:٢٠٠٠) ط٣, حرف الألف, ص٨٥.

[٢] ينظر: قاموس الكتاب المقدس, حرف الألف, ص١٤-١٥.

[٣] سورة آل عمران، آية: ٤٥.

[٤] ينظر: الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان (كان مسيحيًا فأسلم)، ط٢ (مكتبة النافذة، الجيزة: ٢٠٠٤)، ص٨٥.

الله هو تقديم الإرشاد للبشرية. إن المعنى الضمني للإشارة إليه باسم روح الله يعني أن الناس يستمدون قوتهم الروحي منه في إيمانهم، على غرار الطريقة التي يعيشون بها داخل أجسادهم الجسدية. وهذا بمثابة امتداد مجازي وروحي للكلمة، وهو أمر ضروري لفهمنا[١].

يجسد المسيح بالفعل كلمة الله، لكنه ليس كلمة الله الوحيدة. فالمسيح هو ابن الله الأصيل، لكنه ليس ابن الله الوحيد. لا ينبغي الخلط بين كل من الكلمة والابن مع الله، بل هما بالأحرى مخلوقات إلهية. يُطلق على المسيح كلمة الله بسبب خليقته من خلال الكلام الإلهي. هذا الكلام هو الوصية التي نُقلت إلى والدته، مريم العذراء، والتي من خلالها خُلق المسيح. مثلما جاء المسيح بكلمة الله (كن)، خُلق آدم بالمثل قبله من خلال نفس الكلمة (كن). قال تعالى: {إن مَثَلَ عيسى عند اللهِ كمثلِ آدم خلقهُ من تراب ثم قال له كن فيكون}[٢].

يمثل الخلط بين الله وكلمته، الذي لم تتحقق كلماته، سوء فهم كبير بين الخالق والمخلوق، فضلًا عن الخلط المتعلّق بالتمييز بين الصانع والمصنوع[٣]. فالمسيح هو المسيح بالفعل، لكن الإيمان به ليس شرطًا. إن الاعتراف بأهميته هو مسألة قناعة فردية، وليس التزامًا، بينما يظل الله هو الخالق ولا يجب مساواته بالخلق. إذا اعتُبر هذا التأكيد مستحيلًا وخاطئًا، ففي حالة اعتبار الابن والآب متساويين في القدرة والوجود، فما هي ميزة الأب على الابن، وبأي صفة يعمل الأب كمبعوث، مع توقع الطاعة من الابن؟[٤].

رابعًا: بعض مذاهب النصارى: (النساطرة_ الملكانية)

١. مذهب النساطرة

كان الدافع لظهور هذا الموقف العقائدي هو استكشاف طبيعة اتحاد الطبيعتين في المسيح. أدى هذا الموقف العقائدي في النهاية إلى تقويض جوهر رسالة الخلاص وتشويه الإيمان النقي. ترتبط النسطور

---

(١) ينظر: موسوعة مصطلحات علم الكلام, سميح دغيم, ج٢, حرف الكاف, ص١٠٩٤.

(٢) سورة آل عمران، آية: ٥٩.

(٣) ينظر: الله واحد أم ثالوث، محمد مرجان: ص٨٧.

(٤) ينظر: الرد على أصناف النصارى، علي بن زين الطبري، تحقيق: خالد محمد عبده، ط١ (مكتبة النافذة – الجيزة: ٢٠٠٥)، ص١١٠.

بنسطوريوس، الذي تابع دراسته في أنطاكية وأصبح فيما بعد راهبًا بارزًا. تم تعيينه رئيس أساقفة القسطنطينية في عام ٤٢٨ م. لقد رفض فكرة الاتحاد الحقيقي بين الطبيعتين في المسيح، ووصفها بدلاً من ذلك بأنها مجرد اتصال خارجي[١].

لقد شكّلوا أقلية صغيرة داخل مناطق سوريا الطبيعية وتركيا وشمال العراق. تمت الإشارة إليهم على أنهم آشوريون من أصل عراقي. امتد نفوذهم إلى بلاد فارس والهند. في الوقت الحاضر، لا تزال هناك أقلية في شمال غرب إيران، يشار إليها أيضًا باسم الآشوريين، إلى جانب وجود أقلية في الهند. إنهم في حالة خلاف مع الكنيسة الأرثوذكسية، لا سيما فيما يتعلّق بالتعريفات الخلقيدونية. يتجلّى هذا الخلاف في المقام الأول على أنه خلاف لفظي. نجح المبشرون الكاثوليك بشكلٍ ملحوظ في تحويل العديد منهم إلى المعتقد الكاثوليكي[٢]. أكد نسطور باستمرار في عظاته في كنيسة القسطنطينية أنه يوجد شخصان في المسيح؛ على وجه التحديد، شخص إلهي يُعرف باسم اللوغوس، الكلمة الموجودة داخل الفرد البشري يسوع[٣]. وبالتالي، اعتنقت النسطورية في الأصل الإيمان باتحاد الطبيعتين في كيانٍ واحد. من هذا الاعتقاد التأسيسي، أوضحوا تأكيدهم على أنه لا يوجد تمييز بين المسيح والله في أي جانب[٤].

شخصية نسطور

تم تعيين نسطور، وهو راهب سوري، من قبل الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني في الكرسي الأسقفي في القسطنطينية بعد وفاة سيسينيوس. تمت الدعوة إلى اختياره من قبل رئيس أساقفة أنطاكية الذي تم تعيينه مؤخرًا. عند انضمامه إلى المطرانية، التقى نسطور بالعديد من الأفراد الذين لم يكونوا على دراية به واعتبروه غير لائق لدوره الكنسي. وبالتالي، بدأ نسطور على الفور عملية إصلاحية تهدف إلى إحياء الكنيسة التي كان يراها متكاسلة. وأكد أن عددًا كبيرًا من الرهبان يقيمون في نفس المراكز الحضرية. حتى أن بعض هؤلاء الرهبان كانوا منخرطين في العبودية للملك. اعتبر نسطور أن هذا الوضع لا يطاق. بعد ذلك

---

(١) ينظر: الآباء والعقيدة، سعيد يعقوب: ص١٥٧.

(٢) ينظر: الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الاسلام حتى اليوم (دارسة تاريخية دينية سياسية اجتماعية)، أسد رستم، ط٢(الأوائل للنشر، سوريا، دمشق: آب ٢٠٠٥م): ص٢٩.

(٣) القديس كيرلس الاسكندري والكتاب المقدس، جورج عوض إبراهيم، د/ط (مطبعة جي سي سنتر، مصر، ٢٠١٤)، ص٢٢.

(٤) ينظر: الرد على أصناف النصارى، علي الطبري: ص٧٤.

استبعدهم من المشاركة في الوظائف الكنسية المحلية أو المشاريع المجتمعية[١]. أدى هذا الإجراء الحاسم إلى طرد مجموعة كبيرة من النسّاك، الذين شغل معظمهم مناصب مؤثرة بين الأرستقراطيين البارزين والأقوياء الذين منحوهم حماية كبيرة.

كانت إحدى أهم حسابات نسطور الخاطئة هي طرده لمقر إقامة الإمبراطور أوغوستا بولشاريا، الأمر الذي أدى، بالتحالف مع الفصيل الرهباني، إلى تقويض سلطته السياسية بشكلٍ كبير حتى قبل أن يوضح القديس كيرلس حججه اللاهوتية بطريقة علمية[٢].

٢. مذهب الملكانية

إنهم المسيحيون المقيمون في مصر وسوريا الذين خضعوا لمراسيم مجمع خلقيدونية، التي حظرت الأحادية في عام ٤٥١م، مع التأكيد على الطبيعة المزدوجة للمسيح باعتباره إلهيًا وإنسانيًا. تم استخدام مصطلح المونوفيزية بشكلٍ مثير للسخرية من قبل أتباعه، حيث تحالفوا مع الإمبراطور البيزنطي الذي أيد هذه المراسيم علنًا.

في عام ١٧٢٤م، انضم فصيل من الملكيين إلى الكاثوليكية، في حين تم تعريف جزء من هذه المجموعة على أنه يوناني أرثوذكسي. وبالنظر إلى أن الدولة البيزنطية الرومانية كانت تمارس سيطرتها على أراضي سوريا ومصر، فقد بذلت جهودًا حثيثة، مستخدمة الإكراه والحوافز، لتحويل اليعاقبة[٣] والانتقام إلى الالتزام بعقيدتهم الملكية أو الخلقيدونية. فقط الأفراد الذين اعتنقوا هذه العقيدة كانوا مؤهلين للتعيينات الكنسية. كانوا يميلون إلى تعزيز العلاقات مع أولئك الذين انحازوا إلى الملكانية مع الابتعاد عن الأفراد الذين رفضوها، لا سيما أولئك الذين يلتزمون بالعقائد المحلية[٤]. لم يحظ الخطاب الملكاني المتعلّق بطبيعة

---

[١] ينظر: كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الأول) ٣٤-٦٣٤م، أسد رستم، الناشر مؤسسة هنداوي، ٢٠٢١، ص٣٣٨.

[٢] ينظر: القديس كيرلس، جورج إبراهيم: ص٣٥-٣٦. ينظر أيضًا: كيرلس السكندري والجدل الكريستولوجي تاريخه ولاهوته ونصوصه, جون ماكجوين, ترجمة أغاثون الانطوني, ف٢, ص١١٩.

[٣] اليعاقبة: وهم أحد الفِرَق المسيحية القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهو مذهب السريان والارثوذوكس في بلاد الشام ونحوه ومذهب الكنيسة القبطية في مصر التي مركزها الإسكندرية.

[٤] ينظر: الفرق والمذاهب المسيحية، أسد رستم: ص٢٩ – ٣٠.

المسيح وإرادته بنفس الدرجة من التدقيق مثل تلك المتعلقة بالموقف النسطوري. ولم يتعامل معها سوى أبو عيسى الوراق، واتسم رده بقدرٍ كبير من الاضطراب والتكرار. في البداية، حدد الفصائل المتعارضة: (أولئك الذين اختاروا التعبير عن المسيح على أنه يمتلك جوهرين وإرادتين) مقابل (أولئك الذين يؤكدون أن المسيح هو أقنوم واحد ذو جوهرين). ومع ذلك، لم يتطرق بشكلٍ شامل إلى التأكيد على أن المسيح يجسد جوهر أحد هؤلاء، الإنسان الكامل، مكررًا نفس الحجج التي استخدمها سابقًا في خطابه حول اتحاد الكلمة مع الإنسان الكلّي[١].

المبحث الثاني

مفهوم الكلمة في قصة خلق عيسى(عليه السلام) بصورتها الإسلامية

أولًا: الردّ على النصارى

تستند المبادئ اللاهوتية للمسيحية على كل من التوافق والخلافات بين أتباعها. من المسلم به بشكلٍ جماعي أن الله سبحانه وتعالى يجسد جوهرًا يتميز بالوجود الذاتي، غير متحيز ولا مختص بجهة ولا مقدّر بقدر، ولا يقبل حلول الحوادث بذاته، ولا يتصور عليه الحدوث والعدم. تم تحديده كواحد من الأقانيم الثلاثة، والأقانيم هي صفات للجوهر القديم، وهي الوجود والعلم والحياة. يتم التعبير عن الوجود من خلال الآب (الله)، والحياة من خلال الروح القدس، والعلم من خلال الكلمة[٢]. هناك إجماع على دمج الكلمة _التي تعتبر أقنوم العلم_ داخل المسيح واتحادها به، بعيدًا عن الأقانيم الأخرى، وتعيين المسيح بالتزامن مع أقنوم العلم (الابن). فضلًا عن ذلك، هناك اتفاق على أن عيسى ولد من والدته مريم، وأنه قُتل وخضع للصلب والصعود إلى السماء. وفي وقتٍ لاحق، ظهرت مذاهب متباينة، بما في ذلك:

تفترض عقيدة الملكانية أن الأقانيم لا تشكّل الجوهر القديم، مؤكدة أن كل كيان هو إله في حد ذاته. وصرّحوا بإثبات التثليث. وكما قال الله تعالى إخبارًا عنهم: {لقد كَفَرَ الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة}[٣]، يجادلون بأن الكلمة ارتبطت بجسد المسيح، مما ميز إنسانيته ودمجها، على غرار خلط النبيذ بالماء أو الحليب، مما أدى إلى كيانٍ واحد. وانقلبت الكثرة المتكثّرة أي العدد وحدة، وأن المسيح ناسوت كلّي لا

---

[١] ينظر: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، عبدالمجيد الشرفي، ط١ (الدراسة التونسية للنشر، تونس: ١٩٨٦م)، ص٣٦٨.

[٢] ينظر: الملل والنحل، أبي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني (ت٥٤٢)، صححه وعلّق عليه الأستاذ أحمد فهمي محمد، ط٢ (دار الكتب العلمية بيروت _لبنان ١٤١٣هـ _١٩٩٢م)، ص٢٤٥.

[٣] سورة المائدة، آية: ٧٣.

جزئي، وهو قديم أزلي. وقالوا إن مريم ولدت إلهًا أبديًا، على الرغم من تفسيراتهم المتنوعة لطبيعتها كبشرية كليًا أو جزئيًا. وتوصلوا إلى إجماع يؤكّد أن الاتحاد اللاهوتي مع المسيح يحدث بشكلٍ مستقل عن مريم، وأن القتل والصلب وقع على الناسوتية واللاهوتية معًا. إنهم يشيرون إلى الابن على أنه عيسى والآب على أنه الله سبحانه وتعالى[١].

تؤكد العقيدة النسطورية؛ أن الله سبحانه وتعالى واحد، وأن الأقانيم الثلاثة ليسوا متطابقين ولا مختلفين في ذاته. وتم تفسير أقنوم العلم بالنطق والكلمة. الله سبحانه وتعالى موجود كموصول، ويُقال إن الكلمة قد اتحدت مع جسد المسيح (عليه السلام) ليس بطريقة الاندماج، بل بمعنى الإشراق، على غرار إشعاع الشمس الذي يضيء كرة بلورية. يفترض أحد أنصار النسطورية أن كل واحد من الأقانيم الثلاثة يمثل مظهرًا مميزًا للإله. إنهم يميزون الثالوث الموازي لعقيدة الملاكانية، كما تم تحديدها سابقًا[٢].

يزعم بعض المؤيدين أن الوجود والكلمة قديمان، في حين أن الحياة هي مخلوقة. كما يؤكّد آخرون أن الله سبحانه وتعالى واحد، ويشار إليه باسم (الأب)، وأن المسيح هو كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء (والاجتباء)، وهو مخلوق قبل خلق العالم وهو خالق الأشياء كلها. هذا المنظور يتوافق مع إجماع أولئك الذين يؤكّدون أن المسيح (عليه السلام) إلهي. وقد ثبت في الواقع أن المسيح عليه السلام، شفى الأكمه والأبرص، وأحيى الموتى، وقام بأعمال معترف بها من قبل العقلاء على أنها تتجاوز قدرات البشر المخلوقين، مما يؤكّد ألوهيته[٣].

واجتمعوا قاطبةً على جواز إطلاق اسم الأب على الله تعالى، والابن كالمسيح، وفقًا للنصوص الواردة في الإنجيل. تمت الإشارة إلى هذا في الرسالة الأولى ليوحنا الرسول: (أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به)[٤]. يقول المسيح في وحدة الرؤيا: (الذي رآني فقد رأى الأب)[٥]، فـ (أنا والأب

---

[١] ينظر: الملل والنحل، ص٢٤٨-٢٤٩.

[٢] ينظر: أبكار الأفكار في أصول الدين، سيف الدين الآمدي (ت٦٣١)، تحقيق: أحمد محمد المهدي، ط٢ (دار الكتب القومية – القاهرة: ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م)، ج٢/ ص٥٧ – ٥٨.

[٣] ينظر: الملل والنحل، ص٢٥٥.

[٤] رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤: ٩

[٥] انجيل يوحنا ١٤: ٩

واحد)[١]. إذا قمنا بتحديد مذاهبهم وتوضيح مبادئهم وتقديم أمثلة توضيحية من دعمهم الاستدلالي، يصبح من الضروري التدقيق في ادعاءاتهم من أجل تقويضها وتسهيل إبطالها. نؤكد أن اقتراحهم بأن الكلمة قد تجلت في المسيح وارتفعت في داخله لا يمكن الدفاع عنه لسببين رئيسيين:

يتعلّق الأول؛ بامتناع حلول صفة القديم في غيره تعالى.

يتعلّق الثاني؛ بالتأكيد على أن وصول الكلمة لا يساوي الإعلان الأولي لحلول الروح التي تجسد الحياة.

وأمّا قول الملكانية بالتثليث في الآلهة؛ وأن كل أقنوم إلهًا، قد يجادلون بأن كل منهم يمتلك صفات الله سبحانه وتعالى فيما يتعلّق بالوجود والحياة والعلم والقدرة. إن ادعائهم بأن الكلمة قد اتحدت بجسد المسيح هو تحفظ من جهة الدلالة والإلزام. ومن جهة الدلالة تحديدًا يرجع ذلك بشكلٍ ملحوظ إلى طبيعة الاتحاد: إمّا أن يقال ببقائهما أو بعضهما، أو بقاء أحدهما وعدم الآخر[٢].

ثانيًا: آراء المتكلّمين في بيان مفهوم الكلمة

١. الأشاعرة

الأشاعرة: فرقة كلامية إسلامية، تنتسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة، وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاججة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، لإثبات حقائق الدين والعقيدة الاسلامية على طريقة ابن كلاب[٣].

النشأة وأهم الرموز المؤسسة:

أبو الحسن الأشعري، هو أبو الحسن علي بن اسماعيل من ذرية أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه). ولد بالبصرة سنة ٢٧٠هـ، عاش الفترة الأولى من حياته في كنف أبي علي الجُبّائي شيخ المعتزلة في

---

(١) انجيل يوحنا ١٠: ٣٠

(٢) ينظر: أبكار الأفكار، الآمدي: ج٢/ ص٦٣-٦٤. ينظر أيضًا: الفصل في الملك والأهواء والتملك، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الظاهري (ت٤٥٦هـ)، ط١ (دار الجبل – بيروت: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ج١/ ص١٠٩-١١٠.

(٣) ينظر: موسوعة الفِرَق المنتسبة للإسلام، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، (الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت، dorar.net) ص١٩٦.

عصره، وتلقى علومه حتى صار نائبه وموضع ثقته، ولم يزل أبو الحسن يتزعم المعتزلة ٤٠ سنة[١]. بعدها ثار على مذهب الاعتزال الذي كان يدافع عنه، وأثبت الصفات جميعها لله تعالى من غير تكييفٍ ولا تشبيهٍ ولا تعطيلٍ ولا تحريفٍ ولا تبديلٍ ولا تمثيل، وفي هذه الفترة كتب كتاب (الإبانة عن أصول الديانة).

من أبرز أئمة المذهب:

- القاضي أبو بكر الباقلاني (٣٢٨-٤٠٣هـ) (٩٥٠-١٠١٣م).
- أبو اسحاق الشيرازي (١٦٣-٤٧٦هـ) (١٠٠٣-١٠٨٣م).
- أبو اسحاق الأسفراييني (٤١٨هـ) (١٠٢٧م).
- إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (٤١٩ – ٤٧٨هـ) (١٠٢٨-١٠٨٥م).
- أبو حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ) (١٠٥٨-١١١١م).
- الإمام الفخر الرازي (٥٤٤-٦٠٦هـ) (١١٥٠-١٢١٠م)[٢].

تفسير علماء الأشاعرة لمفهوم (الكلمة):

يبنى موقف الأشاعرة في مسألة (كلام الله)، في أن كلام الله متكون من عنصرين أساسيين: الأول، معنى قائم بالنفس. يشكّل هذا كلامًا حقيقيًا يشمل كلاً من الحروف والأصوات، وهذا البيان بمثابة تأكيدٌ واضحٌ له. إن أحد جوانب الكلام يكون مخلوقًا، والذي يتعلّق بالحروف والأصوات. على العكس من ذلك، يظل الجانب الآخر غير مخلوق، ويمثّل المعنى القائم بالنفس. إذ تتوافق هذه الفكرة مع جزءٍ كبير من منظور المعتزلة اللاهوتي. فالمعتزلة تؤكّد على أن الكلام، بما في ذلك أحرفه وكلماته، هو نتاج الخلق. أمّا الأشاعرة يقولون: أن مكونات الكلام، أي الحروف والكلمات مخلوقة، وأن المعنى الأساسي يظل غير مخلوق. فقول الأشاعرة، أن الكلام يمتلك معنى قائم بنفسه، بينما تكون الحروف والأصوات مخلوقة، لهو موقفٌ مشابهٌ بالموقف الذي اعتقده النصارى فيما يتعلّق بتبجيل المسيح[٣].

---

[١] علم الكلام ومدارسه، دكتور فيصل بدير عون، ط٢، (دار الثقافة للنشر والتوزيع/ القاهرة)، (د/ت)، ص٢٦٦-٢٦٧.

[٢] ينظر: الموسوعة العربية، (حقوق الطبع والنشر محفوظة لهيئة الموسوعة العربية، دمشق: ٢٠٠٠م)، المجلد الثاني/ ص٥٦٧. متاح على شبكة الانترنت: https://mail.arab-ency.com.sy/copyrights/

[٣] ينظر: دروس في العقيدة، عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن الراجحي (د/ت)، (مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.net)، المكتبة الشاملة، جزء ١٧، ص٢٦.

لقد قالوا أن عيسى يجسّد نفس جوهر الكلمة الإلهية. كما قالوا بأن عيسى يتألف من عنصرين متميزين: الجانب الإلهي، الذي تجسّده كلمة (كن)، والجانب الإنساني، الذي يمثله عيسى، فاتحدا واندمجا وأصبحا موجدًا يشار إليه باسم المسيح. وبالتالي، أدى ذلك إلى عبادتهم له من دون الله. إن المنظور العقائدي للأشاعرة فيما يتعلّق بالكلام الإلهي يوازي منظور النصارى، إذ يؤكّد الأشاعرة أن كلام الله لها معنى قائم في نفسه، والذي لا يمكن إدراكه إلّا من خلال التعبير عن الألفاظ والحروف. من المفهوم أن الصيغ الموجودة في القرآن قد تم خلقها، في حين أن الكلام القائم بنفس الإله لا يزال غير مخلوق. ولا يمكن فهم المعنى الموجود داخل الإله إلّا من خلال الصيغ التي تم خلقها. إن فهم هذا المعنى، القائم بنفس الإله من خلال الصيغ المخلوقة، يشبه اتحاد اللاهوت بالناسوت كما عبّر عنه النصارى فيما يتعلّق بعيسى. وهذه مقاربة تستدعي التحقيق والبحث المعمّق[١].

وفي كتابه الحكيم قال تعالى: {إذ قالتِ الملائكةُ يا مريم إنَّ الله يُبشِّرُكِ بِكلمةٍ منه اسمهُ المسيحُ ابنُ مريم ...}[٢]. إن ما تشير إليه عبارة (من الله) يتكون من عنصرين: (الأول) هو التأكيد الذي أدلى به أبو عبيدة، الذي يفترض أنها تشكّل كتابًا مقدسًا من الله. تم الاستشهاد به على أنه يقول: أنشد فلان كلمة، والمراد به القصيدة الطويلة[٣]. (التأكيد الثاني) مستمد من إجماع الجمهور: القصد من عبارة (بكلمة من الله) يشير إلى عيسى (عليه السلام). قال السدي: قابلت أم عيسى أم يحيى (عليهما السلام). وهذه حامل بيحيى وتلك بعيسى. قالت: يا مريم، هل لاحظت أنّي حُبلى؟ فأجابت مريم: أنا أيضًا حُبلى. قالت امرأةُ زكريا: إنّي وجدتُ ما كان في بطني يسجد لما هو في بطنِك. يعكس هذا البيان مصدّقًا بكلمةٍ من الله. لاحظ ابن عباس أن يحيى كان أكبر من عيسى بستة أشهر. كان يحيى رائدًا في الاعتراف والتأكيد على أنه كلمة الله وروحه. بعد ذلك، قُتل يحيى قبل رفع عيسى (عليهما السلام). فإن قيل: لماذا سمي عيسى كلمة الله في هذه الآية {إنما المسيح عيسى ابن مريَمَ رسولُ الله وكلمتُهُ}[٤] قلنا: فيه وجوه:

---

[١] المصدر نفسه، جزء ١٧، ص٢٦.

[٢] سورة آل عمران، آية: ٤٥.

[٣] التفسير الكبير مفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر (ت ٦٠٤هـ) ط١ (دار الفكر، د/م: ١٤٠١هـ-١٩٨١م): ج٨، ص٣٨.

[٤] سورة النساء، آية: ١٧١.

(الأول): هو أنه خُلِق بكلمة الله، وتحديدًا قول (كن) بدون وسيط الأب. فعندما تم خلقه بواسطة الأمر الإلهي (كن) وبموجب هذا الخلق دون وساطة الأب والنسل، فلا أن يسمّى (كلمة)، كما يسمّى المخلوق على أنه خلقًا، والمقدور قدرةً والمرجو رجاءً والمشتهى شهوةً، وهذا يمثل سياقًا معروفًا في الدراسات اللغوية.

(الثانية): هي أنه عبّر عن الكلام في طفولته، وأنعم الله عليه الكتاب المقدّس خلال سنواته الأولى. لقد برز بوصفه متحدثًا بليغًا في مرحلة البلوغ. لذا تمت الإشارة إليه بوصفه كلمة في هذا السياق. وفي السابق يقال في الكلام: فلان جود وإقبال إذا كان كاملًا فيهما.

(ثالثًا): مثلما تمتلك الكلمة معاني وحقائق، تم تكليف عيسى بنقل الحقائق والأسرار الإلهية. فتم تسميته كلمة في هذا التفسير الخاص. قبل أن يُشار إليه على أنه روح، من حيث إن الله تعالى أحيى به من الضلالة كما يحيا الإنسان بالروح[1].

(رابعًا): تم توثيق المرجع في نصوص الأنبياء الذين سبقوه. فعند وصوله، تم التأكيد على أنه هو الكلمة، لذا تم تحديده بوصفه الكلمة في هذا التفسير الخاص. وأعلنوا أن الروح المجازية تشير إلى ذلك باعتباره الحدث النهائي. فإذا أحدث ذلك، قال: قد ظهر قولي، وتجلّت كلماتي، أيًا كان ما أوضحته وأعلنته ذات مرة.

(خامسًا): يمكن تصنيف الإنسانية على أنها تستحق الامتنان لله وإحسانٍ من الله. وهكذا، تم الاعتراف بعيسى بن مريم بصفته علمًا: كلمة الله وروح الله. من المفهوم أن كلمة الله تشمل كلامه. وكلماته، وفقًا لتعاليم السنة، بأنها قديمة ومكتفية ذاتيًا[2].

لقد حددنا بُعدين فيما يتعلّق بتفسير الكلمة وآلياتها في هذا السياق. الأول هو أن كل كيان تم خَلقه من خلال الأمر (كن)، لكن السبب التقليدي كان غائبًا عن عيسى (عليه السلام)، الذي يُعرف بأنه الابن.

---

(1) ينظر: التفسير الكبير، الرازي، ج٨، ص٣٨-٣٩، ينظر أيضًا: جامع البيان في تأويل آيات القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الصبري، (٣١٠هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١ (دار هجر- الجيزة: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠١م)، ج٥/ ص٣٧١.

(2) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي: ص٣٩.

لا يوجد خطأ في عزو وجوده إلى الكلمة بطريقة أكثر اكتمالاً وشمولية. يتماشى هذا التفسير مع طبيعة الكلمة نفسها. فضلًا عن ذلك، فإن أولئك الذين يتمتعون بأكبر قدرٍ من الفضيلة والخير والقبول يؤكدون أنه يجسّد نفس الجودة والكرم غير الملوث والمظهر الواضح. وهكذا، ههنا[١].

يتعلّق الاعتبار اللاحق بتوصيف السلطان العادل باعتباره المظهر الأرضي للسلطة الإلهية وبأنه نور الله. إنه بمثابة محفز لتحقيق العدالة ونشر الأعمال الخيرية. وبالمثل، يساهم عيسى (عليه السلام) في التعبير عن الكلام الإلهي، بسبب تصريحاته العديدة وتبديد الشكوك والمفاهيم الخاطئة المحيطة به. فمن غير المحتمل أن يتم تعيينه على أنه كلمة الله الإلهية في هذا السياق. فيما يتعلّق بكلمة (من) في الآية (بكلمةٍ منه)، فإنه لا ينطبق بمعنى التبعيض هنا. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الله سبحانه وتعالى سيكون مجزأً وخاضعًا لإمكانية الاقتران والانفصال. وأي كيان يجسّد مثل هذه الخصائص فهو قابل للتغيير، مما يجعل الله سبحانه وتعالى يتجاوز هذه القيود. بدلاً من ذلك، تشير النية وراء كلمة (من) في هذه الحالة إلى بداية الهدف. إن هذا متجذّر في حقيقة أن عيسى (عليه السلام) لم يكن له وجود مستقل. وبالتالي أصبح تأثير كلمة الله الإلهية في تكوينه ووجوده أكثر اكتمالاً. وهكذا شكّل مفهوم (كلمة الله) المبدأ الأساسي لظهوره وحدوثه أكمل فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا ما يتوهمه النصارى والحلولية[٢].

قال تعالى: {مصدقًا بكلمةٍ من الله}[٣]؛ يتعلّق هذا التفسير بعيسى (عليه السلام) كما أوضحه غالبية المفسرين. يشار إليه على أنه كلمة لأنه يجسد الكلمة الإلهية لله سبحانه وتعالى، وهي (كن). فكان موجودًا بدون أب[٤]. أوضح أبو عبيدة معنى (بكلمةٍ من الله)، مما يدل على السياق الكتابي من الله، قائلاً: والعرب تقول انشدني كلمة أي قصيدة، وقرأ أبو الشمار ذلك على أنه (بكلمةٍ منه). قال مفسّرًا (بكلمة) معناها (اسمه المسيح)، دون تحديد تسمياته، حيث أن أهمية (الكلمة) تعني الولادة[٥].

---

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص٥٢.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٥٤.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٣٩.

(٤) ينظر: معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغدادي (ت٥١٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة سليمان مسلم الحرش، ط١ (دار طيبة – الرياض: ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م)، مج٢/ ص٣٤.

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد أبو بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ) تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١ (دار الرسالة العالمية، دمشق – الحجاز: ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م)، ج٥/ ص١١٥-١٣٥.

إن هذا يشمل بشارة الملائكة لمريم، عليها السلام، فيما يتعلّق بالولادة الوشيكة لابن بارز. قال تعالى: {إذ قالتِ الملائكةُ يا مريم إن الله يُبشّركِ بكلمةٍ منه}، أي نسلٍ سوف يجسّد كلمة من الله، الذي يقول، (كن فيكون). يوضح هذا تفسير قوله: {مصدقًا بكلمةٍ من الله}، كما أوضحها الجمهور سابقًا، (اسمه المسيح عيسى ابن مريم). وهكذا، يقف كوصية في العالم. يعترف المؤمنون بذلك، ويتم تعيينه على أنه المسيح. أكد بعض السَلَف: لكثرة سياحته، وقيل لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما، وقيل لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى، وقوله تعالى: {عيسى ابن مريم} نسبة إلى امه، إذ لا أب له[١].

كانت البشارة الكبرى أيضًا جزءًا من البشارة التي تم تسليمها إلى زكريا بخصوص ابنه، كما تأمّل زكريا. تلقى الرد: مصدِّقًا بكلمةٍ من الله، كما آمن يحيى. لا يتم تكرار أي نجاح كامل في كلمة تأتي من الله. كان هذا الوحي بمثابة مصدر تشجيع لزكريا ليدرك أن حدثًا مهمًا سيحدث عندما يعترف ابنه برسول يحيى، وهو عيسى (عليه السلام). تم وصف عيسى بأنه كلمة غير عادية من الله ويحيى عند قوله تعالى {إن الله يُبشّرُكِ بكلمةٍ...}. وبالتالي، تشير الكلمة إلى مجيء عيسى (عليه السلام). لا شك أن الإيمان بالنبي والاعتراف بصدقه يشكّل بلا شك هدية عميقة من الله، مما يدل على حدث الإدراك السريع للحقيقة. وقد حصل يحيى على هذا التميز في الحالات الأولية، إلى جانب خديجة وأبو بكر في السياقات اللاحقة. قال تعالى: {والذي جاء بالصِدق وصدق به}[٢].

كما تم تعريف الكلمة على أنها تشير إلى كلمة التكوين ذاته. وهي تعلّق القدرة التنجيزي كما ورد في حديث النبي محمد (صل الله عليه وسلم) في خلق الإنسان: (يؤمر بأربع كلماتٍ بكتب رزقه وأجله وعمله). لقد وصف عيسى بكلمة فريدة تختلف عن العمليات التقليدية لنمو الجنين، أي بدون العوامل السببية القياسية، وقول الله (منه)، بمعنى، خالٍ من طرائق الولادة المعتادة. وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى: {فإذا قضى أمرًا}[٣]. كما يُعد الإعلان الإلهي: {اسمه عيسى بن مريم}؛ بمثابة تعبير عن العلم واللقب والوصف بالاسم،

---

[١] تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط١ (دار كتب الحديثة، الأزهر – القاهرة: ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م)، ج١/ ص٢٥. ينظر أيضًا: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي الضاري (ت١٢٧٠هـ) ط١ (إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان: د/ت) ج٣/ ص١٦١.

[٢] سورة الزمر، آية: ٣٣.

[٣] سورة غافر، آية: ٦٨.

إذ تلعب العناصر الثلاثة دورًا محوريًا في تمييز الاسم. من حيث اللقب والعلم الظاهر، إلى جانب التوصيف النافع للنسب، من المعتاد أن يستشهد المستمعون باسم الأب عند الإشارة إلى الشخصيات البارزة لأغراض التمييز، بينما يُعترف بنسب الأم في مسائل النسب. بسبب الجهل، يُشار أحيانًا إلى النسب الأبوي، كما يتضح من مثال زياد بن سمية، قبل ارتباطه بأبي سفيان في عهد معاوية بن أبي سفيان. يمكن أن يثير النسب الأمومي فخرًا كبيرًا، ويتجلّى ذلك في شخصيات مثل عمرو بن هند وعمرو بن منذر، الذين كانوا من الملوك بين العرب[١].

٢. الشيعة الإمامية (الاثني عشرية)

يمثل الشيعة الإمامية الاثني عشرية؛ فصيلًا من المسلمين الذين يؤكدون أن علي يمتلك الاستحقاق الشرعي لوراثة الخلافة، بغض النظر عن الشيخين وعثمان (رضي الله عنهم جميعًا). ويشار إليهم باسم الإمامية نظرًا لأولوياتهم لمفهوم الإمامة باعتباره القضية المركزية التي تهمهم. وتتبع تسمية الأئمة الاثني عشر من تأكيدهم على وجود اثني عشر إمامًا، يُزعم أن آخرهم قد دخل السرداب الواقع في سامراء. فضلًا عن ذلك، أفهم الجزء المقابل المرتبط بالسنة والجماعة فيما يتعلّق بفكرهم ووجهات نظرهم المتميزة. فهم يسعون لنشر معتقداتهم العقائدية في جميع أنحاء العالم الإسلامي[٢].

النشأة وأهم الرموز المؤسسة:

الاثني عشر إمامًا الذين يتخذهم الشيعة الإمامية أئمة لهم، يتسلسلون على النحو التالي:

- علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) الملقّب بالمرتضى قتل في ١٧ رمضان ٤٠هـ.
- الحسن بن علي (رضي الله عنهما) الملقّب بالمجتبى (٣-٥٠هـ).
- الحسين بن علي (رضي الله عنهما) الملقّب بالشهيد (٤-٦١هـ).
- علي زين العابدين بن الحسين الملقّب بالسجّاد (٣٨- ٩٥هـ).
- محمد الباقر بن علي زين العابدين الملقّب بالباقر (٥٧ – ١١٤هـ).
- جعفر الصادق بن محمد الباقر الملقّب بالصادق (٨٣ – ١٤٨هـ).
- موسى الكاظم بن جعفر الصادق الملقّب بالكاظم (١٢٨ – ١٨٣هـ).

---

[١] ينظر: التحرير والتنوير، محمد الظاهر بن عاشور (د/ت) ط١ (الدار التونسية للنشر/ تونس: ١٩٨٤م)، ج٣/ ص٢٣٩-٢٤٠ – ص٢٤٥-٢٤٦.

[٢] ينظر: المرشد المفيد إلى علم التوحيد, عمر وفيق الداعوق, دار البشائر الإسلامية, بيروت، ٢٠٠٧, ص٢٢-٢٣.

- علي الرضا بن موسى الكاظم الملقّب بالرضى (١٤٨ – ٢٠٣هـ).
- محمد الجواد بن علي الرضا الملقّب بالتقي (١٩٥ – ٢٢٠هـ).
- علي الهادي بن محمد الجواد الملقّب بالنقي (٢١٢ – ٢٥٤هـ).
- الحسن العسكري بن علي الهادي الملقّب بالزكي (٢٣٢ – ٢٦٠هـ).
- محمد المهدي بن الحسن العسكري الملقّب بالحجة القائم المنتظر (٢٥٦هـ)[١].

الكلمة في ضوء تفاسير الشيعة الإمامية

قال تعالى: {إن الله يُبشِّرُكِ}، إن التبشير في هذا السياق يعمل على التعبير للفرد عما يسهل عليه. وتسمى هذه الظاهرة على هذا النحو لأنها تثير تعبيرًا مرئيًا عن الفرح عند الكشف عن العوامل التي تساهم في سعادتهم، والتي ترتبط ارتباطًا جوهريًا بالطبيعة البشرية ويمكن إدراكها للحواس البشرية. وقوله (بِكلمةٍ منه) يعتبر التعبير المنسوب إلى هذا المفهوم هو المسيح. وفقًا لتفسيرات ابن عباس وقتادة، يُشار إليه على أنه كلام إلهي. تشمل هذه الفكرة ثلاثة أبعاد: أولاً، تم تصنيفها على هذا النحو نظرًا لجوهرها ككلمة الله الإلهية، والتي يتم الإعلان عنها بدون والد، والتي تتلخص في أمره، (كن فيكون). ثانيًا، من المسلم به أن الله، في قدرته العظيمة، قد بشّر بذلك في الكتب المقدسة السابقة، بما يتماشى مع تأكيدنا على أن الشخص الذي يعلن حدثًا سوف يفي به بالفعل وفقًا للمرسوم الإلهي، كما هو موضح في كلماتي. ثالثًا، لأن الله يهدي به كما يهدي بكلمته. يشير التفسير الثاني حول الكلمة إلى أن الكلمة تشير إلى بشارة، على غرار بشارة عن اسمه المسيح عند الولادة. فالتأويل الأول أقوى لقوله تعالى: {إنما المسيحُ عيسى ابنُ مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه}[٢]. من الواضح في العقيدة الإسلامية أن مصطلح الله يدل على المسيح (عليه السلام)، لا سيما فيما يتعلق بالضمير المرتبط بالاسم، بسبب التركيب النحوي الذكوري للمصطلح. عند استدعاء الكلمة، فإنها تنقل دلالة مميزة، وعندما يتم تمجيدها، فإنها تتعلق بالتعبير اللفظي[٣].

---

[١] ينظر: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، الإمام محمد أبو زهرة، د/ط، (دار الفكر العربي، القاهرة)، (د/ت)، ص٢٦٥.

[٢] سورة النساء، آية: ١٧١.

[٣] ينظر: التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، د/ط (دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان: د/ت)، مج٣ / ص٤٦٠ – ٤٦١.

وفي كتابه العزيز قال تعالى: {إذ قالتِ امرأةُ عِمرانَ ربِّ إنّي نذرتُ لك ما في بطني محررًا فتقبّل مِنّي إنّكَ أنتَ السّميع العليم}[١]. أوحى الله بقدرته وعظمته لعمران أنه سوف يهبه ذَكرًا، يُبرِئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله. نقل عمران هذا الوحي إلى زوجته، التي قالت عند حملها: ربي إنّي نذرتُ لك ما في بطني محررًا للمحراب، وعند قيامها بهذا النذر، أوكلت ابنها إلى المحراب، حسب عاداتهم القديمة. {فلمّا وضعتها قالت ربِّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلمُ بما وضعت وليس الذكر كالأنثى}[٢]، وأنت وعدتني ذكرًا {وإنِّي سميتها مريم وإنِّي أُعيذها بك وذريتها من الشيطانِ الرجيم}[٣]. وبالتالي، وهب الله عيسى لمريم (عليهما السلام). فقال حدّثني أبي عن الحسن بن محبوب، نقلاً عن علي بن رئاب عن أبي بصير، الذي نقل عن أبي عبد الله، قائلاً: إن قلنا لكم في الرجل مِنّا قولًا فلم يكن فيه كان في ولده أو ولد ولده، فلا تنكروا ذلك، إن الله أوحى إلى عمران أنّي واهبٌ لك ذكرًا مباركًا يُبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذنه وجاعله رسولًا إلى بني إسرائيل، فحدّث بذلك امرأته (حنّه)، وهي أم مريم، فلمّا حَمَلت بها كان حَملُها عند نفسها غلامًا. {فلمّا وضعتها أنثى قالت ربِّ إنّي وضعتها أنثى} {وليس الذكرُ كالأنثى}[٤]. لأن البنت لا تكون رسولًا[٥]. لذا جاء قول الله تعالى: (والله أعلمُ بما وضعت).

وحينما وهب الله عيسى لمريم (عليه السلام)، جسّد تحقيق ما تم الكشف عنه لعمران ووعده به. فإذا قلنا لكم في الرجل مِنّا شيئًا، فكان في ولده أو ولد ولده، فلا تنكروا ذلك. وعندما اقتربت مريم، حُبست في المحراب وأخفت نفسها. كان زكريا يدخل المحراب ويكتشف فواكه الصيف في الشتاء وثمار الشتاء في الصيف[٦]. اصطفى الله سبحانه وتعالى مريم في مناسبتين: الأولى، باختيارها، والثانية، من خلال تمكينها من الحمل دون أن يمسّها فحل. ومن ثم، فقد اصطفاها الله بذلك على نساء العالم.

---

[١] سورة آل عمران، آية: ٣٥.

[٢] سورة آل عمران، آية: ٣٦.

[٣] سورة آل عمران، آية: ٣٦.

[٤] سورة آل عمران، آية: ٣٦.

[٥] تفسير القمي، أبو الحسين علي بن إبراهيم القمي (ت ٤هـ) تعليق: السيد طيب الموسوي الجزائري، د/ط (دار الكتاب، قم/ إيران: د/ت)، ص١٠٠ – ١٠١.

[٦] المصدر نفسه, ص١٠١-١٠٢.

لقد تم توضيح أن الاختيار الأولي يتعلّق بقبول الله لها عند الولادة، وهو اعتراف لا مثيل له من قبل أي أنثى سبقتها، مكرسة لممارسة العبادة وفضلها. ونتيجة لذلك، ظهرت السماء كحصن للبر، وتم تطهيرها من الارتباط بالنساء النجسات. أمّا الجانب اللاحق يتعلّق بهدايتها، والذي تضمن إرسال الملائكة إليها، ومنح المكانة المشرفة للولادة بدون أب، والتبرؤ من اللوم الموجه إليها وابنها من قبل المجتمع اليهودي، بعدما أنطق الله الطفل وتمثّلت هذه المعجزة بآية للناس[١].

وبقوله تعالى: (بكلمةٍ منه) فيها قولان؛ يتعلّق القول الأول بتأكيد تسمية المسيح بالكلمة، كما ذكر ابن عباس وقتادة ومجموعة من المفسرين. أوضحوا أنه تم تسميته بكلمةٍ من الله، لأنه وُجد من دون أب، وهو قوله: (كن فيكون). يدلّ عليه قوله (إنّ مَثَلَ عيسى عند الله كمثلِ آدم). لقد تم الافتراض أنه تم تسميته بهذه الطريقة لأن الله ذكره في الكتب القديمة، على غرار الفرد الذي يخبرنا أنه إذا ظهر وفقًا للمرسوم الإلهي، فإن كلامي قد ظهر. فالبشارة في التوراة هو: أنقذنا الله من سيناء، وفديت من ساير. تم الكشف عنها من جبال فاران، وكانت ساير هي المكان الذي أُرسل منه المسيح. لقد قيل أن الله يهديه مثلما يهدي كلمته.

فيما يتعلّق بالتأكيد الثاني، تشير الكلمة إلى بشارة، كما لو كان يبشّر من نفسه ولد (اسمه المسيح). فالتأكيد الأول له أهمية أكبر ويدعمه قوله تعالى: {إنّما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه}[٢]. ومع ذلك، تمت الإشارة إلى الضمير في (اسمه)، وهذا يُعزى إلى الكلمة، إذ يتم التعبير عنه بصفته مذكر في سياق المعنى[٣]. لقد اختلف فيما يتعلّق بالإشارة إلى تسميته بالمسيح. يُزعم أنه مسح البركة واليمن _عن الحسن وقتادة وسعيد_ وقيل لأنه مسح بالتطهير من الذنوب. ويُزعم أنه تم مسحه بزيت بورك فيه. فكانت الأنبياء تستخدم تقليديًا طريقة المسح _عن الجبائي. أفيد أن جبريل مسحه بجناحه في

---

(١) ينظر: كتاب الصافي في تفسير القرآن، محمد بن المرتضى المولى محسن الكاشاني (ت١٠٩١هـ) تحقيق: محسن الحسيني الأميني، ط١ (دار الكتب الإسلامية، إيران _ طهران: ١٤١٩هـ): ج٢/ ص٤٢-٤٤.

(٢) سورة النساء، آية: ١٧١.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (د/ت) ط١ (دار المرتضى، لبنان _بيروت: ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م)، ج٢/ ص٢٣٨.

لحظة ولادته، ليكون بمثابة حماية ضد الشيطان. وقد لوحظ أنه مسح رؤوس الأيتام تكريمًا لله. وذُكر أنه مسح عين شخص أعمى، مما منحه البصر، وقد ثَبَتَ أنه لم يمسح بيده شخصًا مصابًا بأذى إلّا بريء[١].

٣. المعتزلة

تُعرَف المعتزلة بأنها أول مدرسة كلامية شاملة ظهرت في الإسلام، والتي أرست الأساس العقلاني للعقائد الإسلامية. بدأت في البصرة في نهاية القرن الأول بعد الهجرة. شملت هذه المدرسة مجموعة متنوعة من التيارات الفلسفية المتضاربة والآراء الدينية المختلفة. لقد أثرت بشكلٍ كبير على مسار التاريخ الفكري الإسلامي خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين على الأقل، وهي معروفة بإرساء المبادئ الفكرية التأسيسية التي تم على أساسها تطوير علم الكلام السني لاحقًا[٢].

وعلى الرغم من القصة التاريخية التي أوضحت السبب وراء تسمية المعتزلة، والتي مفادها أن الحسن البصري رفض حكم واصل بن عطاء على مرتكب الكبيرة، إلّا أنه طرده من مجلسه. وقام واصل واعتزل قول الأمة. يبدو أن هناك بعض التفسيرات التي توضّح اسم المعتزلة؛ فمنهم من ذهب إلى القول بأن الاعتزال هو بدافع الورع والزهد الذي يقود أصحابه الورعين باعتزال الناس. كما ذهب التفسير الآخر إلى جعل الاعتزال نوعًا من العبادة، لذا جاءت تسمية المعتزلة مرادفة لكلمة (العابد)[٣]. كما تمّت الإشارة إلى المعتزلة بالعديد من التسميات، بما في ذلك: القدرية، وأهل العدل والتوحيد، وأهل الحق، والمقتصدة، والوعيدية[٤].

النشأة وأهم الرموز المؤسسة:

اختلفت رؤية العلماء في ظهور الاعتزال واتجهت الرؤية إلى جهتين: **الوجهة الأولى:** أن الاعتزال حصل نتيجة النقاش في مسائل عقدية دينية؛ كالحكم على مرتكب الكبيرة، والحديث في القدر، بمعنى هل

---

[١] مجمع البيان، الطبرسي: ج٢/ ص٢٣٨.

[٢] ينظر: دراسات في الفِرَق والعقائد الإسلامية، الدكتور عرفان عبدالحميد، ط١ (مطبعة الإرشاد، بغداد: ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م)، ص٨٣.

[٣] ينظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، عوّاد بن عبدالله المُعتق، ط٢ (مكتبة الرشد، الرياض: ١٤١٦هـ –١٩٩٥م)، ص١٧.

[٤] ينظر: علم الكلام ومدارسه، دكتور فيصل بدير عون، ص١٩٤–١٩٥.

يقدر العبد على فعله أم لا يقدر. لذا من المعترف به على نطاقٍ واسع أن المعتزلة اعتزلوا بأنفسهم عن المسلمين من خلال تأكيدهم على أصل (المنزلة بين المنزلتين). كما وتمت معرفتهم لاحقًا على أنهم المعتزلة بعد اعتزال واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري، إذ أسس حلقته الخاصة لتمسّكه بمبدأ (المنزلة بين المنزلتين). فقال الحسن: (اعتزلنا واصل). وبدلاً من ذلك، اعتقدوا أن المسلم الذي يرتكب كبيرة يجب اعتزاله والإعراض عنه[١].

الوجهة الثانية: كان السبب وراء ظهور الاعتزال في الدوافع السياسية. فاعتزال المعتزلة المرتبطة بشيعة علي (رضي الله عنه) والتخلّي عن ولاءها من الحسن عند تنازله لمعاوية، أو أنهم تبنوا موقف الحياد بين شيعة علي ومعاوية، لذا اعتزلوا الفريقين[٢].

وأبرز شخصيات المعتزلة:

- واصل بن عطاء (٧٠-١٣١هـ).
- أبو الهذيل حمدان بن الهذيل (١٣٥-٢٢٦هـ).
- إبراهيم بن سيّار النظام (ت ٣٥٦).
- معمر بن عبّاد السلمي (٢١٥هـ).
- عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٩هـ).
- بشر بن المعتمر (ت ٢١٩هـ).
- ثمامة بن الأشرس النميري (ت ٢٣٤هـ).
- أبو الحسين بن أبي عمر الخياط (ت ٣٩٠هـ).
- القاضي عبد الجبار الهمداني (ت ٤١٥هـ)[٣].

من الواضح أن المعتزلة أظهروا مهارة ملحوظة في التعبير من خلال الدفاع العقلاني عن وحدانية الله. لقد رفضوا بشدة جميع الأفكار السائدة لمفاهيم الجسدية والمشبّهة والمجسّمة والحشوية داخل الإسلام، بما في ذلك معتقدات التعددية عند المجوس والممارسات الوثنية. لقد فسّروا العقيدة المسيحية للثالوث على

---

[١] ينظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، عوّاد بن عبدالله المُعتق، ص١٥.

[٢] ينظر: في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين (١) المعتزلة، الدكتور أحمد محمود صبحي، ط٥ (دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت: ١٩٨٥م)، ص١١٠.

[٣] المصدر نفسه، ص١١٨.

أنها مظهر من مظاهر التشبيه والحلول والاتحاد بين اللاهوت والناسوت. وأكّدوا أن يسوع يمثّل كلمة الله، وهي كلمة مُحدَثة وليست قديمة، لكي لا يتعدد القدماء. مما يتعارض مع ادعاءات الطوائف المسيحية الأخرى، مثل النساطرة والملكانيين. ومع ذلك، فإن مفهومهم عن التوحيد اتسم في الغالب بنفي الصفات لمعاني الكثرة والتعدد والتركيب. لذا أسّسوا قاعدتهم العقائدية على أن الله واحدٌ أحد، وليس بجسمٍ، ولا بشبح، وليس بشكلٍ، ولا صورة، ولا بلحمٍ، ولا دم، وليس بشخصٍ، ولا جوهر ولا عرض، وليس بذي اتجاهاتٍ لا يمين ولا شمال[١].

اتفقت فِرَق النصارى على أن الخالق الإله جوهر واحد ثلاثة أقانيم. وهذه الأقانيم متفقة في الجوهرية مختلفة في الأقنومية، والابن لم يزل مولودًا من الأب، والأب والدًا للابن، ولم تزل الروح فائضة من الأب والابن، وليس كون البنوة على جهة النسل، وإنما كتولد الكلمة من العقل، وحرّ النار من النار، وضياء الشمس من الشمس[٢].

يقدّم القاضي عبدالجبار نقدًا مهمًا للأمثلة التي تمسّكت بها فِرَق النصارى، فالقاضي يقرر بأن الكلمة لا تتولد من العقل؛ لأنها قد تحصل من غير العاقل، وقد يكون العقل فيمن لا يمكنه الكلام، على أن ما لأجله يمنعون من كونه أبًا على جهة التناسل لما فيه من إيجاب حدوثه، يوجب بالضرورة المنع من كونه أبًا على جهة تولد الكلمة من العقل، لأن ذلك لا يكون إلّا في الأمور المحدثة[٣]. ويذهب القاضي عبدالجبار بعدم كفاية النصارى في إثبات فكرة بنوة المسيح، كما هو موضح في القرآن الكريم، الذي يؤكد أن المسيح يجسّد كلمة الله وروحه. قال تعالى: {إنّما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه}[٤]. كما قال تعالى: {مصدِّقًا بكلمةٍ من الله}؛ أي أن يحيى مصدِّقًا بعيسى مؤمنًا به، قيل أنه أول

---

(١) العقيدة الإسلامية والقضايا الخلافية عند علماء الكلام، كمال الدين نور الدين مرجوني البوغيسي (د/ت) (دار الكتب العالمية، بيروت – لبنان:١٩٧١م)، ص٢٤٧.

(٢) مقارنة الأديان بين التنظير والتطبيق عند القاضي عبدالجبار المعتزلي _دراسة تحليلية مقارنة، الدكتور حمدي عبدالله الشرقاوي: د/ط (دار الكتب العلمية، لبنان –بيروت، ٢٠٠٨م)، ص٢٩٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٣٤.

(٤) سورة النساء، آية: ١٧١.

من آمن به، وسمّي عيسى كلمة الله لأنه لم يوجد إلّا بكلمة الله وحدها، وهي قوله: كن من غيرِ سببٍ آخر. وقيل مصدِّقًا بكلمةٍ من الله مؤمنًا بكتابٍ منه، وسمّي الكتاب كلمة، كما قيل: كلمة الحويدرة لقصيدته[١].

والمسيحُ لقبٌ من الألقاب المشرّفة كالصدّيق والفاروق، وأصله مشيحًا بالعبرانية ومعناه المبارك، كقوله تعالى: {وجَعلني مباركًا أين ما كنت}[٢]. وكذلك (عيسى) معرّب من إيشوع ومشتقهما من المسح، والعيس كالراقم في الماء. فإن قلتَ لِمَ قيل (عيسى بن مريم) والخطاب لمريم؟ قلت: لأن الأنبياء يُنسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات فأعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلّا إلى أمه، وبذلك فضِّلت واصطفت على نساء العالمين. فإن قلت: لِمَ ذكر ضمير الكلمة؟ قلت: قلت لأن المسمى بها مذكر. فإن قلت: لِمَ قيل: (اسمه المسيح عيسى بن مريم)، وهذه ثلاثة أشياء؛ الاسم منها عيسى، وأمّا المسيح والابن فلقبٌ وصفة؟ قلت: الاسم للمسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره، فكأنه قيل الذي يعربه ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة[٣].

وهنا يبيّن القاضي عبدالجبار فساد تفسير النصارى في أن (الكلمة) المشار إليها في الآية، يُفهم منها على أنها تتمثّل في الهداية. إذ يتلقى البشر الهداية من عيسى بطريقة الاهتداء عبر الكلمة. ومع ذلك، فإن إجماع المفسّرين السائد يفترض أن (الكلمة) كانت الوسيلة التي تم من خلالها إرسال جبريل إلى مريم. إذ نفخ فيها من روحه إليها بإذن ربه. لذا تشير الكلمة إلى ما قاله الله له بها: (كن) فكان، أو وفقًا لأمره _سبحانه_ من دون وسيط أو نطفة[٤].

الخاتمة والاستنتاجات:

إن من أهم النتائج التي توصل إليها البحث، يمكن إيجازها بالنقاط الآتية:

١. اعتقاد النصارى بألوهية المسيح واعتقاد المسلمين ببشرية المسيح.

---

(١) تفسير الكشاف من حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جارالله محمود عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، تخريج: خليل مأمون شيحا، ط٣ (دار المعرفة، بيروت _لبنان، ١٤٣٠هـ –٢٠٠٩م)، ص١٧١.

(٢) سورة مريم، آية: ٣١.

(٣) تفسير الكشاف، الزمخشري، ص١٧٢.

(٤) ينظر: مقارنة الأديان بين التنظير والتطبيق عند القاضي عبدالجبار المعتزلي، الدكتور حمدي عبدالله الشرقاوي، ص١٣٤.

٢. إن مفهوم الكلمة عند النصارى يختلف عن ما هو عليه عند المسلمين. إذ إن التفسير اللاهوتي عند النصارى ربط قدم الكلمة بقدم الله. بينما وصف الله تعالى عيسى ابن مريم بـ (الكلمة)، وأشار إلى كيفية خلقه من قبل الله، فهو كلمة لأنه خُلِق بكلمةٍ من الله.

٣. اعتقاد النصارى أن المسيح هو ابن الله المتجسّد. بينما ذهبت المذاهب الإسلامية إلى تنزيه الله وتقديم الإثباتات على وحدانيته والاعتقاد بقدمه ولا قديم غيره. كما أثبت المسلمون بمختلف مذاهبهم وكتب تفاسيرهم؛ أن عيسى (عليه السلام) عبدٌ من عباد الله، ورسولٌ من رسله الكرام، مخلوقٌ بكلمة (كن فيكون)، وليس ابنًا لله كما يدّعي النصارى.

٤. تعتقد الغالبية العظمى من النصارى أن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة، والأقنوم لفظة سريانية تعني (الشخص). والأقانيم هي: (الأب، الابن، روح القدس). وقد اختلفت فِرَق النصارى فيما بينهم حول الأقانيم الثلاثة وعلاقة كل أقنومٍ بالآخر، إلّا أنهم اتفقوا على أن هذه الأقانيم متحدة في الجوهر والإرادة والمشيئة.

٥. يتبين أن كتب التفسير لدى علماء المسلمين جاءت لتؤكّد على أن عيسى ولد من مريم العذراء البتول، بلا أب وليس ذلك ببعيدٍ عن قدرة الله. إذ تُعتبر ولادة المسيح معجزة إلهية، فمريم حملت بعيسى وهي عذراء، ومن دون تدخلٍ بشري بأمرٍ من الله وكلمةً منه.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الآباء والعقيدة، سعيد حكيم يعقوب (د/ت)، ط١ (مؤسسة القديس انطونيوس _المركز الارثوذوكسي للدراسات الآبائية _القاهرة: يوليو- ٢٠١٢م).
٢. أبكار الأفكار في اصول الدين، سيف الدين الآندي (ت٦٣١هـ)، تحقيق: أحمد محمد المهدي، ط٢ (دار الكتب القومية – القاهرة: ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م).
٣. إنجيل يوحنا، القس انطونيوس فكري، د/ط (د/م/د/ت).
٤. إنجيل متى، القس انطونيوس فكري، د/ط (د/م/د/ت).
٥. الله واحد أم ثالوث، محمد مجدي مرجان (كان مسيحيًا فأسلم)، ط٢ (مكتبة النافذة – الجيزة: ٢٠٠٤م).
٦. تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، الإمام محمد أبو زهرة، د/ط، (دار الفكر العربي، القاهرة)، (د/ت).

٧. التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، د/ط (دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان: د/ت).
٨. التحرير والتنوير، محمد بن عاشور (د/ت) ط١ (الدار التونسية – تونس: ١٩٨٤).
٩. تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط١ (دار الكتب الحديثة، الأزهر – القاهرة ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م).
١٠. تفسير القمي، أبو الحسين علي بن إبراهيم القمي (ت ٤هـ)، تعليق: السيد طيب الموسوي الجزائري، د/ط (دار الكتاب، قم – إيران: د/ت).
١١. التفسير الكبير مفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين بن ضياء بن عمر (ت ٦٠٤هـ) ط١.
١٢. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، تخريج: خليل مأمون شيحا، ط٢ (دار المعرفة، بيروت _لبنان.
١٣. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبو بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ) تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١ (دار الرسالة العالمية، دمشق – الحجاز: ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م).
١٤. جامع البيان في تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١ (دار هجر – الجيزة: ١٢٢٢هـ-٢٠٠١م).
١٥. دراسات في الفِرَق والعقائد الإسلامية، الدكتور عرفان عبدالحميد، ط١ (مطبعة الإرشاد، بغداد.
١٦. دراسات اللاهوتية في الكتاب المقدس ما أعجب أن يتكلم الله، أدولف بوي، ط١ (مدرسة اللاهوت المعمدانية العربية – لبنان: ٢٠٠٧).
١٧. دروس في العقيدة، عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالرحمن الراجحي (د/ت)، (مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.net)، المكتبة الشاملة، جزء
١٨. الرد على أصناف النصارى، علي بن زين الطبري (د/ت)، تحقيق: خالد محمد عبده، ط١.
١٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ) ط١ (إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان: د/ت).
٢٠. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (ت٥٩٧هـ)، ط١ (المكتب الإسلامي، بيروت – دمشق: ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).
٢١. العقيدة الإسلامية والقضايا الخلافية عند علماء الكلام، كمال الدين نور الدين مرجوني البوغيسي (د/ت، د/ط)، (دار الكتب العالمية، بيروت – لبنان: ١٩٧١م).
٢٢. علم الكلام ومدارسه، دكتور فيصل بدير عون، ط٢، (دار الثقافة للنشر والتوزيع/ القاهرة)، (د/ت).

٢٣. الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، دراسة تاريخية سياسية اجتماعية، سعيد رستم، ط٢ (الأوائل للنشر، سورية – دمشق: آب ٢٠٠٥).
٢٤. الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الظاهري (٤٥٦هـ)، ط٢ (دار الجبل –بيروت: ١٤١٦هـ-١٩٩٦م).
٢٥. الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، عبد المجيد الشرفي، ط١ (الدار التونسية – تونس.
٢٦. في علم الكلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين (١) المعتزلة، الدكتور أحمد محمود صبحي، ط٥ (دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت: ١٩٨٥م).
٢٧. القديس كيرلس الاسكندري والكتاب المقدس، جورج عوض إبراهيم، د/ط (مطبعة جي سي سنتر.
٢٨. قصد الدهور مفهوم الخلاص بكونه اتحادًا بين الله والبشرية، وجدي رزق غالي، (د/ت) ط١ (مركز بانابورت للتراث الآبائي – مصر: يناير ٢٠١٩م).
٢٩. كتاب الصافي في تفسير القرآن، محمد بن المرتضى المولى محسن الكاشاني (ت١٠٩١هـ)، تحقيق: محسن الحسيني الأميني، ط١ (دار الكتب الإسلامية، إيران – طهران: ١٤١٩هـ).
٣٠. كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى (الجزء الأول) ٣٤-٦٣٤م، أسد رستم، الناشر مؤسسة هنداوي.
٣١. لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ) ط١ (إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان: ١٤١٨هـ.
٣٢. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (د/ت)، ط١ (دار المرتضى.
٣٣. معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغدادي (ت٥١٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة، سليمان مسلم الحرش، ط١ (دار طيبة – الرياض: ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م).
٣٤. المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، عوّاد بن عبدالله المُعتق، ط٢ (مكتبة الرشد.
٣٥. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ) د/ط (دار الفكر، د/م: ١٣٩٩هـ.
٣٦. الملل والنحل، أبي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني (ت٥٤٢)، صححه وعلّق عليه الأستاذ أحمد فهمي محمد، ط٢ (دار الكتب العلمية بيروت _لبنان ١٤١٣هـ _١٩٩٢م).
٣٧. موسوعة الفِرَق المنتسبة للإسلام، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، (الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت، dorar.net).
٣٨. الموسوعة العربية، (حقوق الطبع والنشر محفوظة لهيئة الموسوعة العربية، دمشق: ٢٠٠٠م)، المجلد الثاني/ ص٥٦٧. متاح على شبكة الانترنت: https://mail.arab-ency.com.sy/copyrights/
٣٩. يسوع المسيح شخصيته – تعاليمه، الأب بولس إلياس اليسوعي ، ط٢ (المطبعة الكاثوليكية: د/ت).